رسالة التوابع والزوابع لابن شهيد الأندلسّي

وميثاق القراءة الساخرة

أ. علي البوجديدي

(تونس)

تمهيد:

لم يعد خافيا ما للسخرية من أهمية في تجديد دراسة الأدب قديمة وحديثة، لما لها من وطيد صلة بالمباحث البلاغية والتداولية والحجاجية فقد كشف آلان بيروندوني في كتابة مبادئ التداولية اللسانية[١]، عن أبعاد الخطاب الساخر التداولية، أو ما يمكن أن نحدده بمقامات القول ومقاصده. فالسخرية والحال هذه، عمل في اللغة وبها. إنها عمل شفاف، يستعير في ديناميكيته أساليب مواربة، جاعلا من الأسلوب مركز الثقل وقرار النص ومنتهاه. ولأهميتها في دراسة الخطاب عدها محمد العمري من أنواع البلاغات الخاصة[٢].

ورأى فيها بيار سكونشاز مكمن الجمالية وعنوان الأدبية. وتتأتى قيمة السخرية الأدبية عنده حين نقوى لبس المجاز الصوري[٣]، فإذا بالسخرية رديف الأدبية. وهو ما يسمح لنا أن نقول أن

(١) راجع (Alain Berrendonner)
في كتابه: Element de pragrnatique Linguistique, Ed Minuit, Paris, 1982:
(٢) محمد العمري، البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، طبعة١، الدار البيضاء، إفريقيا الشرق، ٢٠٠٥. الفصل الثاني، ص٨١.
(٣) Ambiguite allegorique

السخرية هي صيغة غير مباشرة، كتومة[١] تراهن على عدول معان متناقضة. ولهذا رأى الباحث أن دروب السخرية، هي دروب مغلفة ((بأغشية الضباب الكثيف)) [٢].

كما أن تعدد المقاربات الدقيقة وتنوعها، بل وجدة بعضها، تمنع من تصور تعريف جامع مانع للسخرية. غير أن هذا المفهوم الغائم كان قادراً، ومنذ اِستخدامه على يد الرومنطيقيين أن يتطور وأن يتأقلم مع الظروف المتقلبة في عوالم الأدب. وبإيجاز فإن هذه الطبيعة المتبدلة التي كثيراً ما ذمها الباحثون، ((هي التي تفسر نزعة السخرية المعاصرة المتجددة)) [٣]. ولكن كي يبقى مصطلح السخرية مفهوماً معاصراً، ويواصل تقديم خدماته للقارئ، ((يتوجب أن لا يجهل هذا القارئ تقاليد الفكر الكبرى التي تدين لها السخرية. كما لا يمكنه أن يتغافل عن أهم الظواهر التي علقت بمفهوم السخرية طيلة تاريخه)) [٤].

السخرية وتجديد درس اِبن شهيد:

وانطلاقاً من هذا المهاد النظري، اِخترنا أن نلج عالم الأدب الأندلسي من زاوية مخصوصة هي زاوية الأدب الساخر. وقد وجدنا بعد تقليب النصوص أن السخرية حاضرة في إبداع الأندلسيين نثراً وشعراً، نجدها حاضرة في نصوص المقري[٥]، وفي ما جمع اِبن بسام (ت. ٥٤٢/ ١١٤٧) صاحب

(١) Dissimulateur

(٢) راجع (Pierre Schoentjes) في كتابه: Poetique de l'ironie, Seuil, Paris, 2001 ص١٠.

(٣) ن. م، ص١٠.

(٤)ن. م، ص١٠.

(٥) عقد المقري فصلا أسماه: روح الفكاهة عند الأندلسيين قال فيه: ((ولأهل الأندلس دعابة وحلاوة في محاوراتهم، وأجوبة بديهية مسكتة، والظرف فيهم والأدب كالغريزة، حتى في صبيانهم ويهودهم، فضلا عن علمائهم وأكابرهم)). راجع المقري، نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، تحقيق: إحسان عباس، طبعة ٢، بيروت، دار صادر للنشر، ١٩٩٧. ج٣، ص٣٨١. ومن النصوص اللافتة

الذخيرة، بل هي ميسم رسالة التوابع والزوابع(١) المميز، يقر بذلك كل من تناول الرسالة بالدرس قديماً وحديثاً. فهذا الحميدي (ت. ٤٤٨/ ١٠٥٦) يقول عن كتب اِبن شهيد (ت. ٤٢٦/ ١٠٣٥) (٢): ((وكتبه نافعة كثيرة الهزل)) (٣).

وهذا اِبن بسام في الذخيرة يقول: ((إن هزل فسجع الحمام، أو جد فزئير الأسد الضرغام)) (٤). وينقل لنا رأي أحد معاصريه اِبن حيان (توفي ٩٨٧ للهجرة) فيقول على لسانه: ((وكان في تنميق الهزل والنادرة الحارة أقدر منه على سائر ذلك)) (٥).

وأما في العصر الحديث، فلم يخل كتاب من الكتب التي تناولت أدب اِبن شهيد من الإشارة العابرة إلى طابع النص الساحر، وإن لم توفه حقه من الدرس، ولم تتناوله تناول الدراسة المفردة(١).

نص: الجارية العجفاء، ج٣، صص ١٤١، ١٤٢. ونص: الزهري الأعرج، ج٣، ص٣٨٣. ونص/ المعتمد والشيخ الكثير التهكم. وقد وصف الشيخ بالقول: ((شيخ كثير التهكم والتندر، يمزج ذلك بانحراف يضحك الثكلى)). ج٤، ص١٢٧.

(١) كتبت رسالة التوابع والزوابع في الربع الأول من القرن الخامس الهجري. وهي عبارة عن قصة رحلة خيالية قام بها ابن شهيد صحبة تابعه زهير بن نمير إلى أرض الجن حيث التقى بمن شاء من الشعراء والكتاب في أشخاص توابعهم، واستنشدهم شعرهم وسمع منهم نثرهم، كما أنشدهم من شعره وقرأ عليهم من نثره، فحضر مجالس الجن الأدبية. أما العنوان فنجد البعض من تفسيره في المعجم، فقد جاء في اللسان: ((التابعة الرئى من الجن.. والتابعة: جنية تتبع الإنسان))، أما الزوبعة فهي: ((الريح المعروفة والزوابع الدواهي. والزوبع والزوبعة: ريح تدور في الأرض لا تقصد وجها واحدا تحمل الغبار وترتفع إلى السماء كأنه عمود، أخذت من التزبع وصبيان الأعراب يكنون الإعصار أبا زوبعة، يقال فيه شيطان مارد. وزوبعة اِسم شيطان مارد أو رئيس من رؤساء الجن، ومنه سمي الإعصار زوبعة)). واضح من خلال المادة المعجمية أن المقصود إذن هو هيجان الشيطان الذي يلهم الشاعر الشعر كما ورد في معتقدات العرب القدامى. راجع: ابن منظور، لسان العرب، مادتي (ت. ب. ع)، (ز. ب. ع)

(٢) انظر: ترجمة اِبن شهيد (ولد ٣٨٢/ ٩٢٢، توفي ٤٢٦هـ/ ١٠٣٥م) في وفايات الأعيان لابن خلكان، ج١، ص١١٦. وفي جذوة المقتبس للحميدي ص١٣٣. وفي بغية الملتمس للضبي ص ١٩١، وفي الذخيرة لابن بسام، القسم الأول، الجزء الأول، ص١٩١. وكذلك في المغرب لابن سعيد، ج١، ص١٧٨. وفي مطمح الأنفس للفتح بن خاقان، ص١٦. وفي المطرب لابن دحية، ص١٤٧. وفي معجم الأدباء لياقوت الحموي، ج٢، ص٢١٨. وفي الوافي بالوفيات للصفدي، ص٧. وفي يتيمة الدهر للثعالبي، ج٢، ص٣٥. وفي المسالك لابن فضل الله العمري، ص٢٨، وفي نفح الطيب للمقري، ج١، ص١٥٦.

(٣) أبو عبد الله محمد بن فتوح بن عبد الله الأزدي الحميدي، جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس، طبعة١، مصر، الدار المصرية للتأليف والترجمة، ١٩٦٦. ص١٢٧.

(٤) اِبن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، طبعة ١، تونس، ليبيا، الدار العربية للكتاب، ١٩٨١ القسم الأول، المجلد الأول، ص١٩٢.

(٥) ان. م. ص١٩٢.

فمن الإشارات التي نجدها في دراسات المحدثين ما يقوله عمر سعيدان مقدم رسالة التوابع والزوابع، في تقديمه لآثار اِبن شهيد، يقول: ((ترك لنا اِبن شهيد آثار نثرية... تصور لنا ميله للهزل والسخر، وحبه للنكتة والنقد)) (٢). بل شبه نثر اِبن شهيد بنثر الجاحظ ((في ميله للهزل والفكاهة)) (٣). ولذا عدا السخرية ميزته في الكتابة، إذا لم يكن ((يركن للعبارة المفضوحة أو العارية)) (٤) أحياناً.

وهذا الرأي يكشف عن بعد من أبعاد الرسالة نروم نحن في هذا المجال تسليط بعض الضوء عليه، وهو عمل يندرج في إطار ما وطنا العزم على الإهتمام به في أعمالنا الأكاديمية، وعملنا على الكشف عن خباياه في آثار مفردة ومتنوعة(٥).

التوابع والزوابع وميثاق القراءة الساخرة:

وحتى نلم **بميثاق القراءة الساخرة**، وهو العقد الذي يربطنا بالنص، نلج نص التوابع من خلال عتبته. ذلك أنه ((لا يمكن للباب أن يكون بدون عتبه، تُسلمنا العتبة إلى البيت، لأنه بدون اِجتيازها لا

(١) من الدراسات المهمة التي تناولت رسالة التوابع والزوابع بالدرس دراسة رشيد رضا غديرة، السخرية والفكاهة في رسالة التوابع والزوابع، شهادة الكفاءة في البحث بإشراف محمد اليعلاوي، ١٩٧٨. بيد أن هذه الدراسة قديمة نسبياً، لم يتبلور عند صاحبها المهاد النظري ولا المفاهيم النقدية في مجال دراسة السخرية. أما دراسة عبد العزيز شبيل، ((البنية القصصية في رسالة التوابع والزوابع لابن شهيد الأندلسي))، مجلة حوليات الجامعة التونسية، (تونس)، العدد٢٩، سنة ١٩٨٨، فهي وإن نعت على النقاد إهمالهم جوانب الطرافة في الرسالة، فإنها أغفلت الإشارة إلى السخرية باعتبارها من مقومات البينية القصصية فيها. وأما دراسة الشاذلي بويحي، ابن شهيد الأندلسي: حياته وشعره ونثره، طبعة١، تونس، مؤسسات عبد الكريم بن عبد الله للنشر والتوزيع، (د. ت). فعلى أهميتها، فقد اكتفت بالتنصيص على وجود السخرية في الرسالة دون أن تجري المفهوم على النص، وربما يرجع ذلك إلى طبيعة الكتاب ذاته، الذي جاء في التعريف بابن شهيد: حياته وشعره ونثره، لافي قراءة نص التوابع تحديدا قراءة ساخرة.

(٢)ابن شهيد الأندلسي، رسالة التوابع والزوابع، تقديم: عمر سعيدان، طبعة ١، تونس، مؤسسة سعيدان للطباعة والنشر، (د. ت). ص٦.

(٣)ن. م. ص٧.

(٤)ن. م. ص٨.

(٥)اهتممنا بالسخرية، حين أعددنا رسالة ماجستير بعنوان: السخرية في أدب علي الدوعاجي: تجلياتها ووظائفها، وقد صدرت ضمن سلسلة عيون عن دار الأطلسية للنشر. طبعة ١، ٢٠١٠.

يمكننا دخول البيت)) [1]. والسؤال الذي يحيرنا في هذا المقام هو كيف يمكننا قراءة العنوان باعتباره نصاً قابلاً للتحليل والتأويل يناص نصه الأصلي[2]؟ خاصة وأن رسالة التوابع والزوابع تسمى أيضاً شجرة الفكاهة. يقول الحميدي عن الشيخ الذي خاطبه اِبن شهيد برسالة التوابع هو: ((يحي بن حزم أبو بكر، شيخ من شيوخ الأدب.. وهو الذي خاطبه أبو عامر ابن شهيد برسالة التوابع والزوابع التي يسميها شجرة الفكاهة)) [3].

ولعل هذا الإسم الثاني الذي تخيره اِبن شهيد لرسالته هو بمثابة دعوة تحفز الدارس حتى يلج نص الرسالة. فالعنوان دال وظيفي، وهو كما يقول لوي هويك في كتابه سمة العنوان: ((هو مجموعة العلامات اللسانية من كلمات وجمل.. قد تظهر على رأس النص لتدل عليه وتعينه، وتشير لمحتواه الكلي، ولتجذب جمهوره المستهدف)) [4].

هكذا يكشف العنوان الفرعي المجهول الذي أسقط من حساب الرواة، وأُنتبذ أثناء الرواية عن بعد الرسالة الساحر، ويشير بطرف خفي إلى ضرورة التنبه أثناء قراءتها بما يجعلها ((أقرب إلى الهزل منها إلى الجد)) [5].

---

(١)عبد الحق بلعابد عتبات: جيرار جينيت من النص إلى التناص، طبعة١، لبنان، الدار العربية للعلوم، ناشرون، ٢٠٠٣. ص١٣.

(٢)راجع في هذا الصدد: الأزهر الزناد، نسيج النص: بحث ما يكون به الملفوظ نصا، طبعة ١، الدار البيضاء، المغرب، المركز الثقافي العربي، ١٩٩٣.

(٣)أبو عبد الله محمد الحميدي، جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس، طبعة١، مصر، الدار المصرية للتأليف والترجمة، ١٩٦٦. ص٣٥١.

(٤)راجع: سمة العنوان للوي هويك:

Loe Hoek: La marque du titre: dispositifs semiotiques d'une pratique textuelle, Ed la Haye mouton.Paris, 1981, p17.

(٥)سليم ريدان، السرد في الأفق الأندلسي: مداخل وتحاليل، طبعة١، تونس، شركة أوربيس للطباعة، ٢٠٠٠. ص٦٠.

ويبدو أن اِبن شهيد قد اِستوحى عنوانه الثاني من عنوان كتاب السرقسطي[1]. وفي إبدال اِبن شهيد لعنوان كتاب شجرة الحكمة بشجرة الفكاهة، ما يشي بميثاق القراءة الساحرة الذي أشرنا إليه في البداية. فبين الشجر والفكاهة علاقات وطيدة حسية وروحية جماعها معنى ((السعادة في بعديه الدنيوي والمقدس. والفكاهة في متن التوابع تتعلق بالبيان وتتولد عنه)) [2].

لقد تولدت الرسالة من أصداء نصوص سابقة لها، ألم يقل اِبن رشيق (ت. حوالي ٤٥٦/ ١٠٦٣) ((الكلام من الكلام وإن خفيت طرقه وبعُدت مناسبة)) [3]. وكانت استجابة لسنن الكتابة في مزجها بين الجد والهزل مزجاً دشنه الجاحظ (ت. ٢٥٥/ ٨٦٨) خير تدشين. وابن شهيد يجل الجاحظ مركز القوم، بل ((هالة مجلسهم)) [4]، ويتشوف للقائه ومجالسته. لذا كثيراً ما قارن معاصروه نثره بنثر الجاحظ وسهل ابن هارون. يقول صديقه اِبن حزم عنه: ((ولنا من البلغاء أحمد بن عبد الملك ابن شهيد صديقنا وصاحبنا وهو حي بعد لم يبلغ سن الإكتهال. وله من التصرف في وجوه البلاغة وشعاها مقدار يكاد ينطق فيه بلسان مركب من لساني عمرو وسهل)) [5].

ولعل في قيام رسالة التوابع والزوابع على المزج بين الجد والهزل ما يندرج في ما أقره القدامى. يقول حازم القرطاجني (ت. ٦٨٤/ ١٢٨٥) في مناهج البلغاء وسراج الأدباء إن من ((أراد أن يُلم بشيء من الهزل، أن يتلطف في التدرج من الجد إلى الهزل، وأن يشعر بأن ما ألم به من ذلك شيء لا

---

(١)ألف صاعد بن مكرم السرقسطي كتاباً في الفلسفة عنونه: شجرة الحكمة. غير أن اِبن شهيد أبدل لفظ الحكمة بلفظ الفكاهـــة، وفي ذلك دلالة عميقة على البعد الساحر للنص.

(٢)سليم ريدان، السرد في الأفق الأندلسي: مداخل وتحاليل، ص٨٨.

(٣)ابن رشيق، قراضة الذهب، تحقيق: الشاذلي بويحي، طبعة١، تونس، الدار التونسية للنشر، ١٩٧٢. ص١٥٠.

(٤)ابن شهيد الأندلسي، رسالة التوابع والزوابع، تقديم: عبد العزيز شبيل، طبعة ١، تونس، شركة فنون الرسم والنشر والصـــحافة، (د. ت). ص٣٦.

(٥) المقري، نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، تحقيق: إحسان عباس، طبعة ٢، بيروت، دار صادر للنشر، ١٩٩٧. ج٣، ص١٧٨. ص١٧٨.

حقيقة له، وإنما هو من جهة المزح والدعابة ليبسط بذلك النفوس ويحرك)) [1]. فالمزح مطلوب مرغوب فيه، لأنه يحرك النفوس ويبسطها، وذلك لأن الكثير من ((معاني الهزل تحرك ذا الجد وتطربه)) [2]. ويستشهد حازم في ذلك بسقراط (توفي ٤٧٠ قبل الميلاد) الذي قال في هذا الصدد: ((حكاية الهزل لذيذة سخيف أهلها وحكاية الجد مكروهة، وحكاية الممزوج منها معتدل)) [3]. وفي الهزل طرافة ومتانة كما في الجد طرافة ومتانة، يقول حازم القرطاجني في هذا: ((وقد تأخذ الطريقة الجدية بطرف من الرشاقة، كما تأخذ الطريقة الهزلية بطرف من المتانة)) [4].

وهكذا قامت رسالة اِبن شهيد جامعة بين الطريقة الجدية والطريقة الهزلية، وهما المتداخلتان كما يرى حازم. بل قامت الرسالة إضافة إلى غرضها الأصلي على بث ((الفكاهات ونثر الطرائف وإيراد الدعابة)) [5].

ومن عتبات النص الذي لم يصلنا كاملاً وإنما وصلنا عن طريق اِبن بسام[6]، أن الرسالة التي بين بين أيدينا قد اِمتدت إليها أيادي الرواة ولا نعلم على وجه التدقيق ما يكون قد حذف منها. بل من أدرانا أن ما حذف هو ليس من الخطاب الساحر؟.

(١)حازم القرطاجني، منهج البلغاء وسراج الأدباء، طبعة ٣، لبنان، دار الغرب الإسلامي، تحقيق: محمد الحبيب ابن الخوجــه، ١٩٨٦، ص ٣٣٠.

(٢) ن. م. ص٣٣٠.

(٣)ن. م. ص٣٢٩.

(٤)ن. م. ص٣٣٠.

(٥) إبراهيم موسى حاسر السهيلي، تجديدات الأندلسيين في النثر العربي، رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير، إشراف: عبد البصير عبد الله حسين، المملكة العربية السعودية، جامعة أم القرى، ١٩٨٧. ص٦٣.

(٦)ابن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، طبعة ١، تونس، ليبيا، الدار العربية للكتاب، ١٩٨١ القســم الأول، المجلــد الأول، مــن ص١٩١ إلى ص ٣٣٦. لم يسلم أدب اِبن شهيد من الضياع – ولم يصلنا منه إلا النزر القليل فلم ينج منه، إلا ما أورده الثعــالبي في يتيمة الدهر، وما أثبته ابن بسام في الذخيرة نقله عن ابن حيان غالباً.

الواضح أن اِبن بسام قد عمد إلى اِبتسار الرسالة وقطعها، يقول في هذا الباب بما يكشف عن عتبات النص الخفية: ((وامتد بأبي عامر الكلام في هذا الباب، ومد فيه أطناب الإطناب والإسهاب، فلذلك وقفت دون الغاية وقطعت قبل النهاية)) [1].

وهذا الإعمال جعل الرسالة في بنيتها الحالية رسالة منقوصة، لم يصلنا نصها الكامل، ولذلك نرى جدوى دراستها من زاوية الأدب الساحر، لأن ذلك يراعي غايات الكتابة وطرائق إنتاج الدلالة، ويكشف عن رهافة أسلوب اِبن شهيد، ومدى إضافته للأدب العربي عموماً.

التوابع والزوابع لوحات ساخرة:

وإذا ما تحولنا من العتبة إلى النص ألفينا اِبن شهيد الأندلسي وهو يبدع عمله، ويشكل نسيج كلماته، إنما كان يبني في الآن نفسه عوالم نصه ((محاكياً بناءات موجودة أو مبدعاً، في نطاق الممكن النوعي، طرائق جديدة في تنظيم بنياته النصية)) [2]. لذلك وجدناه يتحين الفرصة في لقائه الخطباء مجتمعين، لكي يعرض عليهم نماذج من نثره كما عرض على الشعراء من قبلهم نماذج من شعره. وتتكشف أنياب الساحر، وتظهر جلية من خلال موقفه من تابع بديع الزمان الهمذاني (توفي ٣٩٨/ ١٠٠٧) ((زبدة الحقب))، الذي حاول أن ينال منه ويحقر من شأنه حين قال: ((هذه نكتة بغذاذية، أبي لك بها يا فتى المغرب؟)) [3].

---

(١)ابن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ق١ م١. ص٢٧٨.

(٢)عبد الحق بلعابد، عتبات: جيرار جينيت من النص إلى التناص، طبعة ١، لبنان، الدار العربية للعلون ناشرون، ٢٠٠٣، ص١٤.

(٣)ابن شهيد الأندلسي، رسالة التوابع والزوابع، ص٦٩.

وهو قول يعكس، إلى حد بعيد نظرة المشارقة إلى أدباء المغرب. فالرسالة من هذه الناحية تجسد رفض هيمنة المشرق، ووصايته على الإبداع المغربي، وذلك بإبراز ما أسماه الشاذلي بويحي ((الشخصية الأندلسية في الأدب)) [١]، وليكشف الساحر عن تلاعبه بالضحية المسخور منها، يصف ردة فعله. فما إن أتم ابن شهيد وصف الماء، حتى ((ضرب زبدة الحقب الأرض برجليه، فأنفجرت له عن مثل برهوت)) [٢]. واستخدم الحكاية الشعبية برهوت[٣] له دلالته وأبعاده الساخرة. فإذا كانت برهوت الأصل رمز العمق وكثرة الماء، فبرهوت الفرع رمز الضحالة والجدب.

ويزداد الموقف سخرية ويتحول المشهد برمته إلى موقف ساخر حين يعمد إلى مسخ رد فعل الهمذاني، إمعاناً في التحقير من شأنه وإيغالا في الحط من قدره: ((وتدهدي[٤] إليها، واجتمعت عليه، وغابت عينه، وانقطع أثره. فأُستضحك الأستاذان من فعله)) [٥].

وعكس ذلك أظهر اِبن شهيد من خلال جولته في عالم الشعر والنثر التوقير والإكبار لا مريء القيس (توفي ٥٦٥ للميلاد) وأبي تمام (توفي ٢٣١/ ٨٤٥)، وأبي نواس (توفي نحو ١٩٨/ ٨١٣)، وأبي الطيب المتنبي (توفي ٣٥٤/ ٩٦٥)، والجاحظ، وكان يظهر علانية الإستخفاف بالبحتري (توفي ٨٩٧ للهجرة) وعبد الحميد الكاتب، وبديع الزمان الهمذاني.

---

(١)الشاذلي بويحي، اِبن شهيد الأندلسي: حياته وشعره ونثره، طبعة ١، تونس، مؤسسات عبد الكريم بن عبد الله للنشر والتوزيـــع، (د. ت). ص٢١٥.

(٢)ابن شهيد الأندلسي، رسالة التوابع والزوابع، ص٧٠.

(٣)جاء في اللسان أن برهوت هو ((وادٍ معروف، قيل هو بحضر موت. وفي حديث على عليه السلام: شر بئر في الأرض برهوت.. بئـــر عميق بحضر موت، لا يستطاع النزول إلى قعرها)). راجع: ابن منظور، لسان العرب، مادة (ب. ر. هـــ).

(٤)يقال ((دهدهه: قلب بعضه على بعض.. تدهدى الحجر وغيره تدهديا إذا تدحرج)). راجع: اِبن منظور، لسان العرب، مادة (د. هـــ. د. هـــ).

(٥)ابن شهيد الأندلسي، رسالة التوابع والزوابع، ص ٧٠.

كما كان اِبن شهيد يحقر معاصريه، فها هو يصور واقعة، فيقول في هجاء ساحر: ((عدمت ببلدي فرسان الكلام، ودهيت بغباوة أهل الزمان)) (1). ويشتد نقده لعلماء اللغة والنحو، على غرار ما نستشفه من محاورته الساحرة لأنف الناقة تابع غريمه أبي القاسم الإفليلي (توفي ٤٤١/ ١٠٤٩) (2) حين شوه خلقته، وجعل تابعه من سكان خيبر اليهودية، وسماه باسم أنف الناقة، وصوره قائلاً: ((أشمط ربعة وارم الأنف يتضالع في مشيته)) (3). لقد بالغ اِبن شهيد في وصف القامة والأنف والمشية، مستخدماً الوصف الكاريكاتوري الساخر. الذي قام على الوصف التشويهي، وهو نوع من التضخيم والتوغل في التشويه الحسي(4). فلئن جعل موصوفه وارم الأنف مثلاً فذلك لخدمة المقصد الأسنى من التصوير الكاريكاتوري. ذلك أن الوصف الكاريكاتوري ((لا يبلغ النهاية في الكمال والغاية في الجمال، إلا إذا قام على مبدأ التضخيم والتشيؤ والتسكين)) (5).

لقد أقام وصفه ذاك على ((تشويه خِلقة المهجو.. بما ينشئ له صورة غاية في القبح الحسي والذهني، ويلفت الإنتباه إليه ويحقق السخرية منه والضحك عليه)) (6). فحتى المناظرة التي أقامها بينه

---

(1)اِبن شهيد الأندلسي، رسالة التوابع والزوابع، ص٥٩.

(2)ن. م، ص٦٥.

(3)هو أبو القاسم إبراهيم بن محمد بن زكريا القرشي الزهري المعروف بالإفليلي. وهو الذي عرض به اِبن شهيد. يقول عنه اِبن بسام: ((بذ أهل زمانة بقرطبة في علم اللسان العربي، والضبط لغريب اللغة وكان غيوراً على ما يحمل من ذلك الفن، كثير الحسد فيه، راكباً رأسه في الخطأ البين إذا تقلده أو نسب فيه)). راجع في هذا الصدد: اِبن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ص ص ٣١٠، ٣١١.

(4)من الثابت أن مصطلح كاريكاتير دخيل على اللغة العربية، واستخدم لأول مرة في مجال السخرية بالتعبير الخطي والرسم والنحت. ولم يستو لفظ الكاريكاتير مصطلحاً دقيقاً إلا في نهاية القرن ١٠/ ١٦ تقريباً. ونحن نوظف هذا المصطلح في الكلام على ضرب من ضروب القول مخصوص. فقد يبشع الساحر من خلقة شخصياته ويشوه أخلاقهم تشويهاً فنياً، ويكون ذلك ((بكلام يحرف أكثر مما يعرف، ويغرب أكثر مما يعرب ويتحامل أكثر مما يتعاطف)). راجع: عامر الحلواني، أساليب الهجاء في شعر ابن الرومي: مقاربة أسلوبية في جمالية القبح، طبعة ١، صفاقس، مطبعة التسفير الفني، ٢٠٠٢. ص٣٩.

(5)عامر الحلواني، أساليب الهجاء في شعر اِبن الرومي: مقاربة أسلوبية في جمالية القبح، ص٤٣.

(6)ن. م، ص ٦٣.

وبين خصمه، إنما هي مناظرة غريبة، دعاه فيها ابن شهيد أن يصف برغوثاً [1]وثعلباً[2]، وهما من أحقر الحشرات وأمكر الحيوانات. فأي مناظرة هذه التي يزمع الدخول فيها؟ وأي جمالية تروم تحقيقها؟

هكذا يرفع اِبن شهيد بالخصم إلى حالق. يعظم من شأنه في البداية حتى إذا ما أنشد، وسُئِل فأفحم، يُنزل الخصم من عليائه، ويرميه رميا ويذبحه بسلاح السخرية الذي لا يرحم، حينها تنقلب الصورة ويغدو الأصل فرعاً والفرع أصلا ويظفر اِبن شهيد بالإجازة وينال الأجر مضاعفا. ولذا فالمشهد الساحر الأشد قسوة وإيلاما، إنما ذاك الذي ينبع من الاِنقلاب الفجئي اِنقلاب تزول فيه المراتب وتندحر سلم القيم.

يبدأ الساحر وصف الإوزة الأدبية ممجداً وينهيه مقبحاً منفراً من شدة حركة الإوزة وكثرة اِضطرابها. لذا يرسم اِبن شهيد صورة الإوزة في المرحلة الأولى، وقد شارفت على الاِكتمال، فهي كما يقول: ((إوزة بيضاء شهلاء في مثل جثمان النعامة، كأنها ذر عليها الكافور، أو لبست غِلالة من دمسق الحرير)) [3].

فصورتها صورة بارعة في الحسن، وُصفت لونا وحجما ورائحة وهنداماً. بيد أنه سرعان ما يعمد إلى تشويه صورة الضحية/ الهدف، ويسارع إلى مسخ حسنها، بإفراغه من موصوفاته الايجابية، فإذا حركتها حركة طيش واضطراب. وهو ما دعاه إلى أن يصورها في صورة ساحرة، وهي في جيئة وذهاب وإقبال وإدبار لا يستقر لها قرار. يقول في شأن اِضطرابها ذاك: ((لم أر أخف من رأسها

(١)قال في معرض السخرية والتحدي: ((قلت: حتى تصف برغوثاً)) ابن شهيد الأندلسي، رسالة التوابع والزوابع، ص٦٦.

(٢)قال في ختام المحاورة: ((وحتى تصف ثعلبا فتقول..)) ن. م، ص٦٨.

(٣)إبن شهيد الأندلسي، رسالة التوابع والزوابع، ص٩٣.

حركة.. تثني سالفتها وتكسر حدقتها، وتلولب قمحدوهّا)) [١]. وهو يحشد لذلك معجما مخصوصا قصد به الحركة [تثني، تكسر، تلولب]، في علاقتها بأعضاء الجسم الموصوف [سالفتها، حدقتها، قمحدوهّا.

يزداد الوضع تدهورا لينقلب المشهد برمته فجأة، يقول: ((ثم ترفعت، وقد اِعترهّا خفة شديدة في مائها، فمرة سابحة، ومرة طائرة تنغمس هنا وتخرج هناك)) [٢]. لقد قوي المعجم المستخدم من معنى الخفة الشديدة، حين يفصلها: [سابحة/ طائرة/ تنغمس/ تخرج].

وما يزيد الموقف سخرية اِسمها، تسمي العاقلة، وتكنى أم الخفيف)) [٣]. وهي تابعة شيخ ((من مشيختكم ... وهي ذات حظ من الأدب)) [٤]. وبين العاقلة وخفيف ما بينهما من طباق بين الاِسم (العاقلة) والكنية (أم خفيف)، وهو تضاد بين المظهر والمخبر!؟

ومن ألوان السخرية في رسالة التوابع والزوابع اِستخدام المشاهد الساخرة، من ذلك تصويره عانة البغال والحمير في حركتها واضطرابها يقول: ((أشرفنا على قرارة غناء تفتر عن بركة ماء، وفيها عانة من حمر الجن وبغالهم، قد أصابها أولق[٥] فهي تصطك بالحوافر وتنفخ من المناخر، وقد اِشتد ضراطها وعلا شحيجها ونهاقها)) [٦]. وإذا ما تأملنا اللوحة السابقة أمكننا أن نرسم الجدول التالي:

(١)ابن شهيد : رسالة التوابع والزوابع، ص٩٣. والقمحدوة: عظمة بارزة في مؤخر الرأس فوق القفا.

(٢)ن. م، ص٩٤.

(٣)ن. م، ص٩٣.

(٤)ن. م، ص٩٣.

(٥) جاء في اللسان: ((الألق والألاق والأولق: الجنون.. اِمرأة ألقى.. هي السريعة الوثب)) راجع: ابن منظور، لسان العرب، مـــادة (ء. ل. ق.

(٦)ابن شهيد الأندلسي، رسالة التوابع والزوابع، ص ٩٠.

المكان	الفواعل	حركة الفواعل	أصوات الفواعل
قرارة غناء تفتر عن بركة ماء	فيها عانة من حمر الجن وبغالهم	أصابها أولق جنون ووثب تصطك بالحوافر	تنفخ من المناخر اِشتد ضُراطها علا شحيجها ونهاقها

وتتفجر السخرية اِنفجار القنبلة الموقوتة في نهايات لقاءات اِبن شهيد بتوابع من يلقاهم من الشعراء والخطباء، فإذا النهاية عقاب ساخر لكل من سولت له نفسه وتشجع على إزدراء شعره أو نثره، أو التقليل من موهبته في عالم الواقع.

فهذا فرعون بن الجون ((جني كأنه هضبة لركانته وتقبضه)) [١]، بدأ الهجوم ((مسدداً سهامه يحدق في دونهم، يرميني بسهمين نافذين)) [٢]، فإذا بابن شهيد منه يستعيذ ومن شره يستطير ((ألوذ بطرفي عنه، وأستعيذ بالله منه)) [٣]. بدأ القول ساخراً محقراً، فكان الرد بالمثل إمعاناً في السخرية ورداً بالمثل ((فقال لي لما اِنتهيت، وقد اِستخفه الحسد: على من أخذت الزمير. قلت: وإنما أنا نفاخ عندك منذ اليوم؟))[٤].

هكذا تتكشف المواجهة ساخرة من خلال هذه الملاسنة الكلامية وتزداد عمقا من خلال ثنائيات الطلب والاِستجابة والاستخبار،والإخبار والامتحان والنجاح في الاِمتحان، فيكون الاِنبهار

(١)ن. م، ص٨٠.
(٢)ن. م، ص٨٠.
(٣)ن. م، ص٨٠.
(٤)ابن شهيد الأندلسي، رسالة التوابع والزوابع، ص٨٠.

ويزداد العجب: ((ففتح على عينيه كالماويتين)) [١]، بل يتقاصر ويغدو كالخنفساء هيئة وحقارة: ((ثم قل وأضمحل، حتى إن الخنفساء لتدوسه، فلا يشغل رجليها)) [٢].

وهنا تتحول الصور في رسالة التوابع والزوابع إلى مشاهد ولوحات ساحرة. تتكثف حينا وتضعف حيناً آخر. وقد بدا لنا من خلال إعادة قراءة النص ومداومة النظر فيه أن بؤرة الرسالة وعمقها الساحرة، إنما جاء في موضع وصف الإوزة الأدبية، رغبة من الساحرة أن ينال من غريمه الإفليلي المدافع عن النحو والمتمسك بالفصاحة الكاذبة، محقراً من شأنه مشوها خِلقته.

ولئن حضر الوصف الساحر في الرسالة، وكان ميثاق قراءتنا للنص، فقد حضر كذلك الحوار الساحر، وهو حوار ((يلائم شخصية كل من المتخاطبين بلهجته ومحتواه)) [٣]. ففي حوار اِبن شهيد مع تابع غريمة أبي القاسم الإفليلي يعمد إلى أسلوب تجاهل العارف[٤]، وهو ما أمكنه أن يفضح من خلاله تهافت خصمه ووضاعة شأنه. وبهذا تنقلب السخرية تهكما في مثل هذا الموضع من الرسالة، بل تغدو تحقيرا نابيا، وبذلك تتحول عن وظيفتها الأصلية وتنحدر من إضفاء الأدبية على النص إلى تصفية الحسابات الواقعية داخل أسوار النص.

---

(١)ن. م، ص٨٥.

(٢)ن. م، ص٨٧.

(٣)الشاذلي بويحي، اِبن شهد الأندلسي: حياته وشعره ونثره، ص٢٢٠.

(٤)يقول أحمد خالد أن العرب القدامى قد مارسوا أفانين ((الفكاهة والدعابة والهزء والإضمار وتجاهل العارف، والمواربة والتلميح والتعريض والإبهام والهجاء بما يشبه المدح، والمدح في معرض الذم، والهزل الذي يراد به الجد والتورية والتوشيح والأرداف والتهويم والالغاز والتصوير الساخر واللفظ باللعب، واللعب النحوي والرمز واللغز والظرف والسخف)). راجع: أحمد خالد، ((في فن التهكم وأبعاده الإنسانية))، مجلة الحياة الثقافية: (تونس)، السنة ٢٥، العدد ١١٧، ٢٠٠٠، ص٤.

وينفلت السارد من حصون الأدب إلى معارك الواقع، حين يقول على لسان أحد فتيان الجن متحدثا عن غريمه الإفليلي: ((إنه على علاته زير علم وزنبيل فهم وكنف رواية)) (١).

ونحن نشدد على دلالة المعجم المستعمل [زير، زنبيل، كنف] وجرسه الإيقاعي ولفظه النابي، لأننا نقر هنا أن السخرية عند اِبن شهيد ليست حِلية تضاف إلى النص، بل هي على العكس من كل ذلك ((إستراتيجية الإحباط واللامبالاة وخيبة الأمل، ولكنها في الوقت نفسه، تنطوي على جانب ايجابي.. إنها سلاح هجومي فعال. وهذا السلاح هو الضحك، لكنه ليس الضحك الذي يتولد عن الكوميديا، بل الضحك الذي يتولد عن التوتر الحاد، والضغط الذي لابد أن ينفجر)) (٢). ولكن لسائل أن يقول أي ضغط هذا الذي عرفه اِبن شهيد وهو الفتى المنعم المترف، سليل المجد والمقام الرفيع؟

لئن وُلد اِبن شهيد بقرطبة وبها نشأ ((في أسرة مجد وثراء ينعم برعاية المنصور بن أبي عامر وذويه)) (٣)، وأندفع منذ شبابه الأول في حياة اللهو والمتع والبطالة، فقد تعرض أثناء خلافة بني حمود بقرطبة إلى محن أدت به إلى السجن زمن يحي المعتلي، فقال في محبسه قصيدته المعروفة بالجحدرية(٤). يقول فيها: [الطويل] (٥).

قريب بمحتل الهوان بعيد   يجود ويشكو حزنه فيجيد

ويقول أيضاً فيها في نوع من الشكوى الساخرة:

(١) ابن شهيد الأندلسي، رسالة التوابع والزوابع، ص٧٣.

(٢)سيزا قاسم، ((المفارقة في القص العربي))، مجلة فصول، (مصر)، العدد ٦٨، شتاء، ربيع ٢٠٠٦. ص١٠٦.

(٣)الشاذلي بويحي، اِبن شهد الأندلسي: حياته وشعره ونثره، ص٢٦.

(٤)الجحدرية: نسبة إلى جحدر، وكان قاطع طريق بأرض اليمن فشدد الحجاج في طلبه حتى ظفر به وحبسه. فنظم في سجنه قصيدة جميلة جميلة يرثي فيها نفسه ويستعطفه، فعفا عنه.

(٥)إبن شهيد الأندلسي، ديوان ابن شهيد الأندلسي، جمعه وحققه: يعقوب زكي، طبعة ١، القاهرة، دار الكتاب العربي للطباعة والنشـــر، ١٩٩٠. ص٤١.

وقُلت لِصداح الحمام وقد بكى على القصر إلفاً والدموع تجود

ألا أيها الباكي على من تحبه كِلانا معنى بالخلاء فريد

وتتجاوب الجدران والأبواب الحديدية لشكواه:

وما زال يبكيني فأبكيه جاهداً وللشوق من دِون الضلوع وقود

إلى أن بكى الجدران من طول شجونا وأجهش باب جانباه حديد

وفيها يقول واصفاً الأيام القلب:

ألا إنما الأيام تلعب بالفتى نحوس تمادي تارة وسعود

وقد أصيب اِبن شهيد في آخر حياته ((بمرض الفالج أو بضيق النفس والنفخ.. وقد ضجر وسئم الحياة وتمنى الموت، بل وخامرته فكرة الإنتحار للتخلص من آلامه)) [١].

لقد صادفت هذه المحن والمصائب تنكراً من أدباء زمانه، وتحقيرا لشأنه، فما كان منه إلا أن توسل بأكثر وسائل اللغة إيلاماً، وأقدرها على النيل من خصومه. توسل بالسخرية، لأن معركته مع خصومه هي بالأساس ((معركة هوية أدبية)) [٢]. لذلك يستخدم اِبن شهيد السخرية بعد أن اِستهلك جميع وسائل الإقناع الأخرى.

(١)الشاذلي بويحي، اِبن شهد الأندلسي: حياته وشعره ونثره، ص٢٨.

(٢)هاشم العزام، ((المفارقة في رسالة التوابع والزوابع: دراسة نصية))، مجلة جامعة أم القرى، (السعودية)، الجزء ١٦، العدد ٢٨، شوال ١٤٢٤. ص٢٩.

لنقل قول سيزا قاسم أن السخرية هي ((إستراتيجية قول نقدي ساخر، وهي في الواقع تعبير عن موقف عدواني، ولكنه تعبير غير مباشر يقوم على التورية.. حيث أنها شكل من الأشكال البلاغية التي تشبه الاستعارة في ثنائية الدلالة))[1].

وبما أن السخرية إستراتيجية عدوانية، فهي تستخدم ((في نهاية المطاف عندما تفشل كل وسائل الإقناع، وتستهلك الحجج، ويخفق النقد الموضوعي، فعندئذ تظل.. هي الطريق الوحيد المفتوح أمام الاختيار))[2].

وما دام ذاك هو خيار ابن شهيد، فلا أقل من أن يحقق انتصاره الكاسح على أهل زمانه، ولكنه هذه المرة يغدو الانتصار مضاعفاً يشهد له به الجاحظ وعبد الحميد الكاتب، وهما من هما في دنيا الأدب. يشهدان لابن شهيد بالإجازة شاعرا خطيبا. يقول في مشهد لا أدري هل يمكن أن نقرؤه على محمل الجد، أو نقرؤه على محمل السخرية لما له من دلالة في سياق الواقع الذي أشرنا إليه: ((وانفض الجمع والأبصار إلى ناظرة، والأعناق نحوي مائلة))[3].

ونحن نقرأ هذا المقطع النصي على ما فيه من طاقات ساخرة، برده إلى الدواعي الخفية التي دعت ابن شهيد لكتابة رسالته. لقد كتب التوابع والزوابع، وفي نفسه ضيق، وفي صدره حرج، وفي حلقه غصة نتيجة علاقته بمعاصريه. ولكنه لا يكيد في النص لمعاصريه في الزمن فقط، وإنما يكيد لهم من خلال كيده للبحتري الذي لا يزال شعره أنموذج الأندلسيين ومثالهم في قول الشعر، لذلك تعابث به ولم يفارقه إلا وفي نفس البحتري غضب وحيرة، ولم يتركه إلا بعد أن انتزع منه الإجازة انتزاعاً.

(١)سيزا قاسم، ((المفارقة في القص العربي))، مجلة فصول، (مصر)، العدد ٦٨، شتاء، ربيع ٢٠٠٦. ص١٠٦.

(٢)ن. م. ص١٠٦.

(٣)ابن شهيد الأندلسي، رسالة التوابع والزوابع، ص٧٣.

يقول في خاتمة اللقاء على لسان البحتري: ((أجزته لا بورك فيك من زائر، ولا في صاحبك أبي عامر!)) [١]. وهكذا لا يسخر اِبن شهيد من إبداع عصره، بل يسخر من القالب الذي يشكل الإبداع، وقد تأتى له بعد أن اِشتد عوده وعادت إلى نفسه توازنها جراء إجازة القدامى له ووقوفه أمام المحدثين. يبدأ ابن شهيد صغيراً مكانا ومكانة، يرتج عليه ويفحم[٢]، بل كثيراً ما ينقطع مسلكه ويخونه الأسلوب[٣]،

حتى إن الحيصة[٤] لتصيبه في أول لقاء له مع شيطان امرئ القيس وتابعه، بيد أنه سرعان ما يغدو كبيرا متمكنا يناظر منفردا، ويستقطب أنظار المجالس. لقد أمكن لابن شهيد من خلال حواره مع البغلة، أن يكشف لقارئه ما آلت إليه المراتب والمقامات الإِجتماعية، وما أصابها من تبدل وتغير. يقول على لسان تلك البغلة: ((ومن إخوانك من بلغ الإمارة وانتهى إلى الوزارة)) [٥].

ومن هنا تسقط جميع الأقنعة عن الوجوه، حين يكشف عن زيف هذا الإِرتقاء، إذ ((يأخذ التوتر الوجداني للنص بقارئه إلى خارج النص نفسه، ليكشف مناطق أخرى وصلها الفساد السياسي الذي قاد إلي وصول أعداء اِبن شهيد إلى مثل هذا الموقع)) [٦].

(١)اِبن شهيد الأندلسي، رسالة التوابع والزوابع، ص٤٧.

(٢) يقول اِبن شهيد في بداية الرسالة: ((فأرتج على القول وأفحمت)) اِبن شهيد الأندلسي، رسالة التوابع والزوابع، ص٣٣.

(٣)يقول اِبن شهيد في بداية الرسالة: ((وكنت أبا بكر، متى أرتج علي أو اِنقطع بي مسلك، أو خانني أسلوب أنشد الأبيات فيمثل لي صاحبي، فأسير إلي ما أرغب، وأدرك بقريحتي ما أطلب)). اِبن شهيد الأندلسي، رسالة التوابع والزوابع، ص٣٤.

(٤)يقول اِبن شهيد في بداية لقائه بتابع أمرئ القيس: ((فهمت بالحيصة)). والحيصة هي الإِنهزام والهرب. راجع: اِبن شهيد الأندلسي، رسالة التوابع والزوابع، ص٣٣.

(٥) اِبن شهيد الأندلسي، رسالة التوابع والزوابع، ص٩٢.

(٦) هاشم العزام، ((المفارقة في رسالة التوابع والزوابع: دراسة نصية))، ص٣٩.

الخاتمة:

ولا يسعنا في نهاية المقال، الذي حاولنا فيه المراوحة بين عتبات النص وإشاراته الداخلية أملاً في تلمس ميثاق السخرية في الأثر المدروس، إلا أن نقول أن حل شفرة السخرية ((يستلزم مهارة خاصة لفهم العلامة، وهي مهارة ثقافية إيديولوجية يشارك فيها المتكلم والمخاطب)) (١).

بل إن السخرية هي بمثابة اللعبة العقلية، لذا فهي ((من أرقى أنواع النشاط العقلي وأكثرها تعقيدا، تستخدم لقتل العاطفية المفرطة وللقضاء على المظهر الزائف، ولفضح التضخيم الفكري. ومن جانب آخر تمثل.. موقفا من التراث الحضاري، حيث تتجه إلى إعادة تقييم التراث الفني الموروث من خلال إعادة صياغته وتشكيله وتفسيره وتحويله)) (٢). ونحسب أن اِبن شهيد قد أعمل عقله في واقع عصره، وفضح ما عليه مجتمعه من تضخم فكري، فزحزح ثباته تحت سياط السخرية اللاذعة المريرة.

---

(١) سيزا قاسم، ((المفارقة في القص العربي))، مجلة فصول، (مصر)، العدد ٦٨، شتاء، ربيع ٢٠٠٦. ص ١٤٤.

(٢) ن. م. ص١٠٦.